

المكتبة المفتوحة: كيف تتكامل إتاحة المعرفة مع المكان؟

The open library and its enemies

بيل تومسون



الملخص:

يربط المقال بين فكرة المجتمع المفتوح والبيانات المفتوحة ودور المكتبات في إتاحة المعرفة. ويعرض مبادئ الإتاحة وإعادة الاستخدام والمشاركة الشاملة، ثم يتصور مكتبة تتيح بياناتها وخدماتها وتصل بين المكان المادي والبيئة الرقمية. ويستعين بأفكار كارل بوبر لمناقشة أثر الانفتاح في تداول المعرفة، والمصالح التي قد تعوقه. ويرى الكاتب أن التقنية وحدها لا تكفل قيام مجتمع بيانات مفتوحة، وأن بناء المكتبات المفتوحة يتطلب اختيارات مؤسسية واعية ودفاعاً عن إتاحة المعلومات.

الكلمات المفتاحية: المكتبة المفتوحة، البيانات المفتوحة، المجتمع المفتوح، كارل بوبر، الإنترنت

البيانات المفتوحة والمكتبات المفتوحة:

تقوم حركة البيانات المفتوحة (open data) على الرأي القائل إن بيانات معينة ينبغي أن تكون متاحة بحرية للجميع ليستخدموها ويعيدوا نشرها كما يشاؤون، دون قيود تفرضها حقوق المؤلف أو براءات الاختراع أو غيرها من آليات التحكم القانونية أو التقنية. ويعبّر «التعريف المفتوح» عن ذلك بأوجز عبارة، إذ ينص على أن «البيانات أو المحتوى تكون مفتوحة إذا كان لأي شخص الحرية في استخدامها وإعادة استخدامها وإعادة توزيعها - مع الخضوع، على الأكثر، لاشتراط النسبة و/أو المشاركة بالمثل» [3].

ويفهم هذا عادةً على ثلاثة محاور منفصلة. يتعلق الأول بالإتاحة والوصول: يجب أن تكون البيانات متاحة كاملةً، وبتكلفة لا تتجاوز تكلفة معقولة للاستنساخ، ويُفضّل أن يكون ذلك بالتنزيل عبر الإنترنت. ويجب أن تكون البيانات متاحة أيضًا في شكل ملائم وقابل للتعديل. والثاني يشمل إعادة الاستخدام وإعادة التوزيع: يجب أن تُقدّم البيانات

بشروط تسمح بإعادة استخدامها وإعادة توزيعها، بما في ذلك مزجها بمجموعات بيانات أخرى. ويجب أن تكون البيانات قابلة للقراءة الآلية. وأخيرًا، يفرض «التعريف المفتوح» المشاركة الشاملة: يجب أن يتمكن الجميع من الاستخدام وإعادة الاستخدام وإعادة التوزيع، فلا ينبغي أن يكون هناك تمييز ضد مجالات النشاط أو ضد أشخاص أو جماعات. ويعني هذا أن القيود «غير التجارية» التي تمنع الاستخدام «التجاري»، أو قيود الاستخدام لأغراض معينة (كالتعليم وحده مثلًا)، غير مسموح بها.

وإذا كانت البيانات المفتوحة متاحة للجميع لاستخدامها وإعادة استخدامها وتوزيعها، فإن المكتبة المفتوحة تجسّد هذه المبادئ في عملها. فهي تيسّر الوصول والمشاركة، وتتيح بياناتها للقراءة الآلية، وتتجاوز دور الفهرس الذي يكفي بوصف المقتنيات لتصبح نقطة اتصال في الشبكة وجسرًا بين العالم المادي والبيئة الرقمية.

لا تهدف المكتبات المفتوحة إلى إحلال الفضاء الإلكتروني محل المكان المادي، أو الكتب الإلكترونية محل المطبوعة، بل إلى وصل البيئتين حتى تتكامل تجربة القارئ بينهما [4]. فقد أتاحت المكتبة دائمًا الانغماس في عالم الأفكار؛ ونرى ذلك حين يستغرق القراء في كتبهم، بل يجلس بعضهم على الأرض قرب الرفوف، كأن الانتقال إلى مقعد سيقطع صلتهم بالمشاهد التي تبنيها الكلمات في أذهانهم.

وتستطيع المكتبات الآن أن تتيح كذلك الوصول إلى فضاء الشبكة المشترك. ويتطلب ذلك تجهيزات تتجاوز الرفوف والمقاعد والإضاءة، لكنه لا يقل أهمية عنها. فقد أصبح هذا الفضاء جزءًا مهمًا من حياة كثيرين، ويمكن أن تكون المكتبة المفتوحة بوابتهم إليه. وفي الوقت نفسه، تظل لكل مكتبة خصوصية نابذة من مكانها المادي الذي لا يتكرر، استعارةً من فكرة فالتر بنيامين (Walter Benjamin) عن العمل الفني في عصر الاستنساخ الآلي [5].

وحتى لو كانت قاعة في مكتبة ما بوابة إلى فضاء افتراضي قابل للتكرار بلا نهاية، فلا بد لنا أن نقرّ بأن الجمع بين الفضاء المادي والفضاء الافتراضي هو في ذاته فريد بقدر فريدة الفضاء المادي، وأن نفسح المجال للواقع المحلي ليفرض حضوره بخصائصه الذاتية. فليست الدعوة إلى المكتبات المفتوحة دعوة إلى أن تكون كل مكتبة ماثلة لغيرها أو أن توحى بذلك، ولا إلى أن نتخلّى عن المكتبة المادية بوصفها نقطة العبور بين الواقعي والافتراضي.

استلهام بوبر:

المكتبات التي تجد سبيلًا لتصبح نقاط عبور مكوّن مهم من مكونات «مجتمع البيانات المفتوحة»، وهو مجتمع راسخ في الوصول إلى البيانات المفتوحة واستخدامها، مجتمع شفاف ومنفتح على التفاعل مع طرائق جديدة في التفكير.

ومصطلح «مجتمع البيانات المفتوحة» تلاعب بالصيغة التي ابتكرها الفيلسوف كارل بوبر في كتابه «المجتمع المفتوح وأعداؤه» (The Open Society and Its Enemies) [6]، الذي كُتب في أثناء الحرب العالمية الثانية ونُشر أول مرة عام 1945. فالمجتمع المفتوح عند بوبر لم يكن وصفًا لنظام سياسي، بل كان تصورًا لما يراه المجتمع ممكنًا - أي إنه مسألة معرفية (إبستمولوجية) لا سياسية.

فالمجتمع المفتوح في نظر بوبر هو مجتمع منفتح على المساءلة ومنفتح على وجهات النظر المختلفة، بدلًا من أن يتركز على سلطة لا تقبل المساءلة، سواء أكانت مستمدة من الدين أم مفروضة بأيديولوجيا سياسية. وهذا الرأي نابع من عمله الفلسفي ومن نظريته الخاصة في المعرفة؛ إذ إن كانت المعرفة مؤقتة وقابلة للخطأ، فهذا يقتضي أن يكون المجتمع منفتحًا على وجهات النظر البديلة، لأن «الحقائق» التي يبدو أنه يقوم عليها قد يتبين أنها هي

نفسها خاطئة. والمجتمع المفتوح يسمح بالتعددية الثقافية والدينية؛ وفي المقابل، تركز المجتمعات المغلقة على ادعاءات اليقين وعلى فرض نسخة بعينها من الواقع، حيث تكون حرية التفكير خطرة ويجب قمعها، ولا يُسمح إلا بأشكال معينة من الاستكشاف الفكري.

وحين كتب بوبر «المجتمع المفتوح وأعداؤه»، كان يعتقد أن العلوم الاجتماعية أخفقت في إدراك أهمية الفاشية والشيوعية وطبيعتهم، لأنها لم تستطع أن تفهم كيف كانت هذه الأنماط من المجتمعات تفهم العالم. وقد رأى أن الشمولية أرغمت المعرفة على أن تصبح سياسية، وأن هذا جعل التفكير النقدي مستحيلًا وأدى مباشرة إلى تدمير المعرفة في البلدان الشمولية، وانتقد فلاسفة مثل أفلاطون (Plato) وهيجل (Hegel) وماركس (Marx) ممن رأى أنهم وضعوا الإطار الذي قامت عليه الشمولية.

عصر الإلكترونيات:

نعيش في عصر الإلكترونيات، حيث تتشكل جوانب كثيرة من الحياة اليومية - للخير أو للشر - بقدرات آلات تعتمد على سريان تيارات كهربائية ضئيلة ورصدها، وعلى فتح مفاتيح قائمة على السيليكون وإغلاقها. وما تستطيع هذه التقنيات فعله مذهل حقًا، وقد غيّر تطبيقها حياتنا جميعًا - لا حياة من يسهل عليهم الوصول إلى أحدث الأجهزة الجذابة فحسب، بل حتى حياة من يعيشون في فقر وقد لا يمسكون بأنفسهم هاتفًا محمولًا أو حاسوبًا قط، ولا يتشاركون المعلومات عبر الإنترنت.

ونتيجة لذلك، ترتبط النقاشات حول الانفتاح ارتباطًا وثيقًا بالنقاشات حول الإنترنت، لا لمجرد أن الشبكة كانت طوال الثلاثين عامًا الماضية إحدى القنوات الرئيسة التي تغفلت عبرها أفكار الانفتاح في عالم التقنية وأثّرت في السياسة والثقافة الشعبية، بل أيضًا لأنه يصعب تخيل أن يكون لفكر البيانات المفتوحة الأثر الذي أحدثه من دون قناة توفر وصولًا سهلًا إلى تلك البيانات وإلى نتائج استخدامها، والشبكة هي تلك القناة.

وأنماط المعرفة التي تجعلها البيانات المفتوحة ممكنة، والتي تجعلها الإنترنت المفتوحة قابلة للمشاركة، وتجعلها المكتبة المفتوحة متاحة، تدعم ذلك النوع من المجتمعات المفتوحة الذي كان بوبر معنيًا به، بحيث إن أي مجتمع يتبنى تمامًا مبادئ البيانات المفتوحة والمعرفة المفتوحة سيجد صعوبة في أن يكون مغلقًا بالمعنى البوبري.

ولا يعني ذلك أنه سيكون مجتمعًا صالحًا، أو أن العيش فيه سيكون طيبًا، أو أنه لن يكون شريرًا. كل ما في الأمر أنه سيصعب عليه أن يكون مغلقًا وأن يظل مغلقًا.

لا يمكننا الاعتماد على الإنترنت:

مجتمع البيانات المفتوحة هو ما يحدث حين تلتقي رؤية كارل بوبر للمجتمع المفتوح بالإنترنت، وإن كان ظهوره ونجاحه أبعد ما يكونان عن الضمان، ولا سيما أن أطرافًا كثيرة لها مصالح في إبقاء البيانات والشبكات والتفكير مغلقة.

غير أن تجربة مجتمع البيانات المفتوحة بدأت بسبب العواقب غير المتوقعة إلى حد كبير لتبني العالم كله مجموعة من التقنيات بُنيت على افتراض الانفتاح، دون أي اهتمام حقيقي بأثرها الأوسع [7]. وتلك التقنيات هي التي منحتنا إنترنت اليوم، وما زالت تتطور.

إنترنت اليوم تجربة عالمية هائلة وغير منظمة في الانفتاح، لكن التجربة لا تخلو من المخاطر. والدفع نحو البيانات المفتوحة، والرغبة في بناء هياكل للبحث العلمي والتنظيم والحوكمة فوق افتراض أن البيانات ستكون مفتوحة، جانب واحد منها، لكنه قد يثبت أنه الجانب الأهم، لأنه يخلق إمكانية حقيقية لأن نعيد هيكلة المجتمع الحديث ونجد سبيلًا إلى بناء هياكل اجتماعية على مجموعة جديدة من الافتراضات، تمامًا كما استبدل عصر التنوير بالتعليم الديني التلقيني نتائج التقصي العلمي في أجزاء واسعة من العالم قبل 500 عام.

ولا يعني ذلك أننا نستطيع بالضرورة أن نتنبأ بالطريقة التي ستتطور بها التقنية. فقد احتج بوبر على «التاريخانية» (historicism)، أي فكرة أن للتاريخ مسارًا وأن هناك معتقدات جوهرية لا يمكن مساءلتها. ومن المهم بالقدر نفسه أن نتجنب الجوهريّة التقنية، وأن نقبل أن البرنامج أو مجموعة البيانات ليس لهما قيم جوهرية ولا صفات جوهرية. فالسؤال «ما الغرض من هذه البيانات؟» مفيد بقدر ما يفيد السؤال «ما الطاولة؟». البيانات المفتوحة أداة يمكن عبرها ممارسة السلطة السياسية بطرائق تقليدية وغير تقليدية شتى، وهي في الوقت نفسه تحدد منطقة متنازعًا عليها تُمارَس فيها السياسة.

لكننا لا نستطيع ببساطة أن نهدم الجدران أمام التدفق غير المعوّق للمعلومات ثم نتوقع ألا تكون هناك عواقب. فما من تقنية توجد في فراغ، والاستخدام المتزايد لحواسيب رقمية قوية متصلة بشبكة تزداد سرعة وانتشارًا باستمرار، وتوفر بوابات إلى كميات هائلة من البيانات المهيكلة، يقتضي منا أن نطرح أسئلة صعبة عن الطرائق التي سنستخدم بها في تشكيل المجتمع.

ومن تعتمد أعمالهم التجارية على تقييد قدرة الناس على نسخ الأغاني أو الصور أو الفيديو وتعديلها - أي «صناعات المحتوى» - يجدون صعوبة في التعامل مع الانفتاح، وكذلك من يريدون إدارة التدفق الحر للمعلومات لأسباب ليست تجارية بحتة، مثل الأطباء الذين يحتفظون بسجلاتنا الطبية أو الشركات التي تخزن الرسائل الإلكترونية الشخصية، أو أولئك الذين يجنون المال من تنظيم البحوث الأكاديمية وبيع الاشتراكات.

هذا هو الصراع الكامن في قلب مجتمع البيانات المفتوحة. إنه ليس قضية تقنية ولن تحله التقنية. إنه في جوهره قضية معرفية (إبستمولوجية)، مسألة كيف نعرف العالم، وهي مسألة تسبق سؤالنا عن الكيفية التي يمكن بها تطبيق تلك المعرفة واستخدامها.

والأطر القانونية والتنظيمية والسياسية والمالية التي تحدد المجتمع الحديث ليست بالضرورة مواتية لظهور مجتمع بيانات مفتوحة فاعل. فالانفتاح هش، والبيانات المفتوحة أشد هشاشة بمرتين، والمجتمع المفتوح عرضة دائمًا للتحدي من قبل من يريدون إحكام إغلاق واجهات برمجة التطبيقات (application programming interfaces, APIs) [8] أو فرض أيديولوجيات جامدة.

إذا أردنا أن نعيش في مجتمع بيانات مفتوحة، فعلينا أن نبنيه، وإذا أردنا مكتبات مفتوحة، فعلينا أن نبنينا أيضًا. وهذا يعني أن المكتبات - وأمناء المكتبات - سينتهي بها وبهم الأمر حتمًا إلى الانحياز إلى أحد الطرفين في الصراع بين من يؤمنون بالشرط الأول من مقولة ستيوارت براند (Stewart Brand) الشهيرة:

المعلومات تريد أن تكون حرة [9]

ومن يفضلون شطرها الثاني الأقل شهرة:

المعلومات تريد أن تكون باهظة الثمن [10].

الهوامش:

1. للاطلاع على خلفية عن بوبر، يُنظر: <http://plato.stanford.edu/entries/popper> / (تاريخ الاطلاع 9 سبتمبر 2014).
 2. يذكر «التعريف المفتوح» أن «البيانات أو المحتوى تكون مفتوحة إذا كان لأي شخص الحرية في استخدامها وإعادة استخدامها وإعادة توزيعها - مع الخضوع، على الأكثر، لاشتراط النسبة و/أو المشاركة بالمثل». يُنظر المزيد في: <http://opendefinition.org> / (تاريخ الاطلاع 9 سبتمبر 2014).
 3. التعريف المفتوح، المرجع 2.
 4. أستخدم المصطلح بمعنى فضفاض يشمل كل من يستفيد من الخدمات التي تقدمها المكتبات، مطبوعة كانت أو متعددة الوسائط أو غير ذلك.
 5. يُنظر على سبيل المثال التحليل الوارد في: Hafner, K Lyon, M, , Where Wizards Stay Up Late: The Origins of the Internet, 1996, New York, Simon & Schuster.
 6. واجهة برمجة التطبيقات هي الطريقة التي يصل بها برنامج حاسوبي إلى مجموعة بيانات، سواء محلياً أو عبر الشبكة.
 7. أقدم ظهور مسجل لهذه العبارة كان في مؤتمر الهاكرز الأول (Hackers Conference) عام 1984. فقد قال براند للمؤسس المشارك لشركة آبل للحواسيب (Apple Computer) ستيف وزنيك (Steve Wozniak): «من جهة، المعلومات تريد أن تكون باهظة الثمن، لأنها ثمينة جداً. فالمعلومة الصحيحة في المكان الصحيح تغير حياتك ببساطة. ومن جهة أخرى، المعلومات تريد أن تكون حرة، لأن تكلفة إخراجها تنخفض أكثر فأكثر طوال الوقت. فلديك إذن هذان الأمران يتصارعان أحدهما مع الآخر».
 8. أو «خاضعة للتحكم». فالأمران متكافئان في كثير من البيئات الإلكترونية.
1. Benjamin, W eds. Arendt, Hannah, ed. "The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction", Illuminations, ed. Arendt, H, , 1968, London, Fontana. pp. 214-218. ويمكن <http://www.marxists.org/reference/subject/philosophy/works/ge/benjamin.htm> للاطلاع على النص الكامل في (تاريخ الاطلاع 9 سبتمبر 2014).
 2. Popper, K, , The Open Society and Its Enemies (2 Volumes), 1945, London, Routledge. تاريخ الاطلاع 9 / <http://www.iep.utm.edu/popp-pol/> :وللاطلاع على خلفية عن بوبر ومعتقداته، يُنظر (سبتمبر 2014).